

شجرة الحكمة
في نيارح مصر والفاهرة
بالحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى
(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصْدِيرُ

يُعتبر دخول العرب مصر سنة ٦٤٠ من الهجرة على يد الصحابيِّ الجليل عمرو بن العاص مولد تاريخ جديد لهذه البلاد، ذات الماضي البعيد؛ فلم يكذبَ بَيْمُ الفتح، وتستقرَّ الأحوال بها بعد الوقائع الحربية المعروفة، حتى أخذ سُكَّانُها يدخلون في دينِ الله أفواجا؛ وتنشرح صدورهم للقرآن الكريم، وتصطنع ألسنتهم اللسان العربيَّ المُبِين؛ ونُصِّبَ العربية لغة الدواوين. ثم يرحلُ إليها أعيانُ الصحابة وجِلَّةُ التابعين، ويهوى نحوها الفقهاء والقراء وحفاظ الحديث ورواة اللغة والأدب والشعر؛ وتُبْنَى فيها للمساجد؛ لإقامة شعائر العبادات، ومدارس علوم الدين، وللِفصل في ساحتها بين الناس؛ كما أنشئت فيها المدارس لتلقِّي العلوم والمعارف، وألحقت بها خزائن الكتب، لجذب العلماء من شتى الجهات؛ مما ارتفع به شأنُ العلم، وازدهرت الفنون والآداب.

وتولَّى مقاليد الحكم فيها على مرِّ العصور من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين؛ مَنْ فتَحوا أبوابهم للعافين والزَّافدين، واستمعوا إلى الشَّعراء والمادحين، وأجازوا على التأليف والتصنيف، وقاموا في بناء الحضارة الإسلامية بأَوْفى نصيب.

بل إن مصر كانت - وما زالت - حامية المِلَّة والدين، وراعية الإسلام والمسلمين، وقاهرة الفِرقة والمعتدين؛ مما جعلها أعزَّ مكان في الوطن العربيِّ الكبير.

فكان من حقِّ هذا الإقليم أن يشغل مكانه في التاريخ، وأن يُخصَّصَ بعناية العلماء والمؤرخين؛ وأن تُفَرَّدَ لوصف ملاحمه المؤلَّقات، وأن يُتدارس تاريخه في كل مكان

وزمان . . . وكذلك الأمر والحمد لله كان ؛ فقد نبغ من العلماء القدامى والحديثين مَنْ وَضَعُوا في تاريخ مصر المصنفات تختلف طولاً وقِصراً ، وتباين طَريقة ومنهاجا ؛ منهم ابن عبد الحكم وأبو عمر الكندي وابن ميسر والسبجي والقضاعي وابن دقاق وابن رُولاق والأدفيوي والعماد الأصمهاني وابن حجر والمقريزي والسيوطي والجبرتي وأبو السرور البكري وابن تغري بردي وابن إياس .

وكتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، الذي صنفه الجلال السيوطي من أنفس الكتب التي صدرت عن هؤلاء الأعلام ، وأعزبها مَوْرَدًا ، وأصفها منهاجًا ، وأسَدَّها منها ، وأوضحها فُصولاً وأبواباً ، وأوفاهما استيعاباً وشمولاً ، سلك فيه طريقاً قَصِداً ، ليس بالطويل المستطرد المشوش ؛ ولا بالمقتضب الخالي من النفع والجِدْوَى ، بدأه بذكر ماورد في شأن مصر من الآثار في القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم ثناه بذكر تاريخ مصر في عهدها القديم ؛ عهد الفراعنة وبُناة الأهرام ، على حسب ماوقع لديه من المعارف ، وعلى حسب ما كان شائعاً في عصره ، ثم وصف الفتح الإسلامي وما صاحبه من وقائع وأحداث ، وامتّم من امتزاج المصريين بالعرب تحت راية الإسلام ، ثم ذكر الوافدين على مصر ومن نبغ فيها من أصحاب المذاهب ، ومن عاش بها من الحفاظ والمؤرخين والقُراء والقُصاص والشعراء والمتطّيعين وغيرهم ؛ مع ذكر نُبذٍ من حياتهم وتاريخ موالدهم ووفياتهم . ولم يخلُ كتابه من تاريخ الولاة الذين تعاقبوا عليها ، والقضاة الذين حَكَمُوا فيها ، والحكومات التي قامت بها ، وما بُني فيها من المساجد والمدارس والخطاها .

ومن أمتع ماورد فيه تلك الفصول التي عقدها في ذكر عادات المصريين ومواسمهم وأعيادهم والأسباب الدائرة بينهم ؛ وما كان فيهما من أندية الأدب ومجالس الشعر والسر ؛ على منهج طريف أخاذ .

وكان سيده في كلِّ ما أورده من هذا الكتاب النقلُ عن الكتب المتخصصة في هذا الشأن ، مضافاً إليها ما وقع له من المشاهدة ؛ أو ما نقله سماه عن علماء عصره ؛ من الشيوخ والأقران والتلاميذ .

والسيوطي منبهج معروف بذكره في مقدمات بعض كتبه - وخاصة المطولة منها - أن يورد مصادر من الكتب التي اعتمد عليها وأسماء مؤلفيها ؛ فمل ذلك في كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وكتاب الإقتان في علوم القرآن ؛ وفمل ذلك أيضاً في هذا الكتاب ، قال : « وقد طالمت على هذا الكتاب كتباً شتى ، منها فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر لأبي عمر الكندي ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاي ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وإيقاظ المغفل وإيعاظ المتأمل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوَّج الزُّبيري والخطط للمقرئ ، والمسالك لابن فضل الله العمري ، ومختصره للشيخ تقي الدين الكرمانى ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله ومختصره للشيخ تقي الدين الكرمانى ومباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الأنصارى ، وعنوان السير لمحمد بن عبد الله الهمداني ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لمحمد بن الربيع الجيزي ، والتجريد في الصحابة للذهبي ، والإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ، ورجال الكتب العشرة للحسيني ، وطبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات القراء له ، وطبقات الشافعية للسبكي ، وللإسنوي ، وطبقات المالكية لابن قزحون ، وطبقات الحنفية لابن دُقاق ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي وتاريخ الإسلام للذهبي ، والعبر له ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وإنباء النمر بأبناء العمر لابن حجر ، والطالع السعيد في أخبار الصعيد للأدقوي ، وسجع الهديل في أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشي والسكردان لابن أبي حجلة ، وثمار الأوراق لابن حجة . » هذا غير ما ذكره في تصانيف الكتاب من المراجع الأخرى .

وقد طبع هذا الكتاب عدّة طبعات ؛ يشيع في معظمها التصحيف والتجريف والخطأ ؛

طبع طبع حجر بمصر سنة ١٨٦٠ م ، وطبع في مطبعة الوطن ، سنة ١٢٩٩ هـ ، وطبع بمطبعة
الموسوعات سنة ١٣٢٤ هـ ، وطبع بمطبعة السمادة سنة ١٣٢٤ هـ ، وطبع بالمطبعة الشرفية
سنة ١٣٢٧ هـ ، وطبع منه جزء صغير مع ترجمة لاتينية سنة ١٨٣٤ م ، كما أودع دور
الكتب في العالم شرقا وغربا كثير من نسخه المخطوطة .

وحينما شرعت في تحقيق هذا الكتاب رجعت إلى نسخة مخطوطة بالمكتبة التيمورية
بدار الكتب برقم ٢٣٩٤ تاريخ-تيمور تمت كتابتها في رجب سنة ٨٩٧٧ هـ ، تقع في ٤٦٥ صفحة ،
في كل صفحة ٣٥ سطرا تقريبا ، في كل سطر حوالى ٢٠ بكلة ؛ كتبت بخط ممتاز يمنح
إلى الصحة والإنقان والضبط القليل ، ووضعت العنوانات بخط أغلظ ، وفي حواشيتها
ما يشير إلى قراءتها ومقابلتها . وقد أخذت هذه النسخة أصلا في التحقيق .

كما أنى تخيرت مما طبع نسختين قريبتين من الصحة : النسخة المطبوعة في مطبعة الوطن ورزمت
إليها بالحرف (ط) ، والنسخة المطبوعة بمصر على الحجر ، وقد رمزت إليها بالحرف (ح) .
ثم رجعت إلى ما تيسر لي الحصول عليه من المصادر التي ذكرها ، وما اقتضاه الأمر من
الرجوع إلى الكتب الأخرى في التفسير والحديث والأدب ودواوين الشعر ومعاجم اللغة .
هذا ، وقد جعلت من منهجى في هذا الكتاب ألا أسرف في التعليق ، أو استطردي في
الشرح والتفسير ؛ إلا بالقدر الذى يُعين على فهم النص وبه تستقيم العبارات ، محاولا
أن يبدو الكتاب في أقرب صورة من نسخة المؤلف ؛ وأن أقوم في آخر الكتاب بعمل
الفهارس المتنوعة التى تقرب نفعه ، وتُذني جَنَاه .

وتصدر هذه الطبعة في جزأين ينتهى الأول منهما بذكر أخبار الخلفاء الفاطميين أو كما
سماه المؤلف : « أمراء مصر من بنى عبيد » . ويبدأ الجزء الثانى بذكر أمراء مصر من
حين ملكها بنو أيوب ، وينتهى بالفصل الذى عقده في حبوب مصر وخضرائها وبقولها .

وأما الجلال السيوطى المؤلف ، فقد عقد لنفسه فصلا في هذا الكتاب ^(١) تحدث فيه عن

(١) حسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ - ٣٤٤ (طبعة الحلبي)

نسبه وأجداده ، وذكر أن مولده كان : « بعد المغرب مسهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة » ، كما ذكر الكتب التي درسها ، والشيوخ الذين تلقى عنهم ، والبلاد التي رحل إليها ، والعلوم التي حذقها ، والكتب التي ألّفها ؛ مما يمدّ وثيقة تاريخية في حياة هذا العالم الجليل . وقد ظل السيوطي طوال حياته مشغولاً بالدراس مشغولاً بالعلم ، يتلقاه عن شيوخه أو يبذله لتلاميذه ، أو يذيعه فتياً ، أو يحرره في الكتب والأسفار ؛ وحينما تقدم به العمر ، وأحس من نفسه الضعف ، حلا بنفسه في منزله بروضة المقياس ، واعتزل الناس ، وتجرّد للعبادة والتصنيف ، وألّف كتابه : « التنقيح في الاعتذار عن الفتيا والتدريس » .

وكان رحمه الله في حياته الخاصة على أحسن ما يكون عليه العلماء ورجال الفضل والدين ، عفيفاً كريماً ، غنى النفس ، متباعداً عن ذوى الجاه والسلطان ، لا يقف بباب أمير أو وزير ؛ قائماً برزقه من حنّاه شيخه ، لا يطمع فيما سواه . وكان الأسراء والوزراء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم فيردّها . وروى أن السلطان النورى أرسل إليه مرة خصياً وألّف دينار ، فردّ الدينار ، وأخذ الخصى ثم اعتقه ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية ، وقال لرسول السلطان : لا تمدّ تائبنا قط بهدية ؛ فإن الله أغنانا عن ذلك . وأما كتبه فقد أخصى السيوطي منها في كتابه نحواً من ثلاثمائة ؛ في التفسير وتعلقاته والقراءات ، والحديث وتعلقاته والفقه وتعلقاته ، وفنّ العربية وتعلقاته ، وفنّ الأصول والبيان والتصوّف ، وفنّ التاريخ والأدب والأجزاء المفردة ، ما بين كبير في مجلد أو مجلدات ، وصغير في كرايس أو أوراق . وذكر تلميذه الداودى المالكي أنها أنافت على خمسمائة مؤلف . وقال ابن إياس في تاريخه (حوادث ٩١١) : إنها بلغت ستمائة مؤلف .

وتقع هذه الكتب في مجلد أو مجلدات ؛ كالزهر والإتقان والأشباه والتظائر وبغية الوعاة والدرر المنتور في التفسير بالمأثور والجامع الصغير والجامع الكبير وأمثالها ، أو في أوراق أو صفحات ؛ كهذه الرسائل التي طبعت باسم الحاوى في الفتاوى ؛ في مجلد يحوى ثمانية وسبعين كتاباً في معظم الفنون . وقد تدارس العلماء هذه الكتب في كل مكان ،

وانتشرت في حياة السيوطي وبعده ، وعمرت بها المدارس والمعاهد ودُور الكتب ، وكاتبه المستفتون من شتى الجهات ؛ مما أثار عليه فريقاً من أقرانه ومعاصريه من العلماء ، وتحاملوا عليه ، ورمّوه بما هو منه براء ؛ وكان من أشدّ الناس خصومةً عليه ، وأكثرهم تحريماً وتشهيراً ، المؤرّخ شمس الدين السخاوي ، صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ؛ فقد ترجم له في هذا الكتاب ، ونال من علمه وحلقه ؛ مما يقع مثله بين النظراء والأنداد . وانتصر السيوطي لنفسه في مقامة أسماها : السكاوي على تاريخ السخاوي ؛ كما انتصر له فريق من تلاميذه وفريق من العلماء ممن جاء بعده ؛ منهم الشوكاني صاحب البدر الطالع ؛ قال في ترجمته للسيوطي بعد أن خلص مطاعن السخاوي فيه ، وردّ هذه المطاعن عنه : « وكلّ حالٍ فهو غير مقبولٍ عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل ، بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض ؛ مع ظهور أدنى منافسة ؛ فكيف لمثل هذه المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض ! فإن أقلّ من هذا يوجب عدم القبول . والسخاوي رحمه الله وإن كان إماماً غير مدفوع ؛ لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه » .

وكانت وفاة السيوطي على ما ذكره ابن إياس في الخميس تاسع شهرى جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ ، ودفن بجوار خاتمه قوصون^(١) خارج باب القرافة ، بعد أن ملأ الدنيا علماً ، وشهرة وذكراً^(٢) . رحمه الله عليه ما

محمد أبو الفضل إبراهيم

يناير سنة ١٩٦٧ م

(١) وصح العلامة أحمد تيمور بختا في قبر السيوطي وتحقيق موضعه ، ونشر بالمكتبة السلفية بمصر سنة ١٣٤٦ هـ . وفي العام الماضي قت مع صديق العلامة الأديب الشاعر المتفنن الأستاذ سيد إبراهيم الخطاط بزيارة قبر السيوطي ، في ضوء ما حققه العلامة تيمور ؛ فوجدناه مقاما على مسجد ؛ يكاد لا يعرف بعد أن كانت - كما أخبرنا بعض من لقيناه هناك - الصلوات تقام فيه ؛ وتؤدى الشعائر . ولعل القارئ بأمر المساجد في القاهرة يمتن بهذا المسجد وإعادة إحياء الشعائر فيه ، تقديرًا لذكرى العالم الجليل .
(٢) انظر مقدمتنا لكل من كتابي بنية الوعاة في أخبار النجاة والإيقان في علوم القرآن للمؤلف .